التسامح
والاختلاف عند علماء الإمارات

ثاني بن عبدالله المهيري

عام التسامح
YEAR OF TOLERANCE

مجلة تراث

نادي تراث الإمارات العدد 241 نوفمبر 2019

التسامح والاختلاف عند علماء الإمارات

ثاني بن عبدالله المهيري

يقول الشيخ عبدالله بن بيّه: «وُصفت الشريعة بأنها حنيفية سمحة، كما قال عليه الصلاة والسلام «بعثت بالحنيفية السمحة»، أي السهلة الميسّرة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، مما يدل على رفع الإصر والحرج فيها والبعد عن التشدُّد.(1)».. وللتسامح في الشريعة أسس نرصد بعضها من خلال أخبار عدد من علماء وفقهاء الإمارات.

الرؤية للآخر

يعتبر الإسلامُ البشرَ جميعاً إخوةً، والآخر في رؤية الإسلام ليس عدواً ولا خصماً بل هو على حد عبارة الإمام عليّ رضي الله عنه: «أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخَلْقِ»، فالآخر كما يقول الشيخ عبدالله بن بيّه هو: «الأخُ بزيادة راء الرحمة والرأفة والرفق».

ويتجلى هذا في تقديم الإسلام الكرامة الإنسانية بوصفها أولَ مشترك إنساني، لأن البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم كرّمهم الله عز وجل. ونجد لهذا المعنى مظهراً في أخبار علماء الإمارات وآثارهم؛ فقد استقبلت أبوظبي ودبي وغيرها من الإمارات جاليات من الطائفة الهندية «البانيان» الهندوس، بل كان لبعضهم علاقات حسنة بعلماء البلاد، وكذلك نجد هذا المعنى في عقود المعاملات التي صاغها الفقهاء والقضاة والتي لا تفرق بين البشر على أساس ديني في المعاملات.

الاختلاف والتعددية

التعدد سنة كونية، والاختلاف من فطرة الناس، وكذلك تعدد تصوراتهم وأفكارهم وعاداتهم. ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام إلا معترفاً بهذا المبدأ ومعلنا بضرورة احترامه، كما يقول العلامة عبدالله بن بيّه. ونرى لهذا الاختلاف تجليات على أرض الإمارات، حيث كانت أغلب المدن، وخصوصاً التجارية منها حاوية للمذاهب السنية الأربعة، فلا تخلو مدينة من وجود مذهبين على الأقل، وكان لذلك أثر إيجابي في تعزيز ثقافة الاختلاف، كما أثّر ذلك في الفتوى والقضاء، إذ عمل الفقهاء بأقوال خارج مذاهبهم أحياناً، فقد أصّل الفقهاء من أتباع المذاهب الأربعة أن الاختلاف رحمة، وكان من المتون التي يحفظها الأطفال في المدارس الشرعية القديمة بالإمارات من نظم صفوة الزبد في فقه الشافعية: والشافعي ومالكٌ نعمانُ/ وأحمد بن حنبلٍ سفيانُ/ وغيرهم من سائر الأئمة/ على هدى، والاختلاف رحمة. ولم يعهد عند علمائنا التعصب المذهبي والحط من قدر المذاهب الأخرى. ومن ذلك أن القاضي المالكي الشيخ مقرن بن محمد الكندي، كان يحيل المتخاصمين إلى بعض فقهاء الشافعية إذا علم أن المسألة في مذهب الشافعي أيسر لهم، وكذلك كان يفعل قضاة الشافعية كالسيد محمد سعيد، وغيره من العلماء.

وكان بعض العلماء من المالكية يدرّس المذهب الشافعي، والعكس. وقد قام الشيخ المالكي مبارك بن علي الشامسي بتدريس المذهب الحنبلي لبعض أبناء الأسر الحنبلية بدبي. وكان فقهاء المالكية يراعون الخلاف مع الشافعية في قراءة البسملة التي يعدها الشافعية آية

من الفاتحة؛ حتى قال الشيخ العلامة محمد الخزرجي: «وعلى الإمام المخالف لمذهب الجماعة أن يصلي بحسب حكم صلاة مذهبهم أو يعتزل الإمامة، والأئمة المتعصبون أرى إبعادهم عن مساجد الشافعية، ومراعاة الخلاف مما جرى عليه العمل في بلادنا، فالمالكية يُسرون بقراءة البسملة مراعاة لمذهب الشافعية»(2). وهذه الفتوى من الشيخ رحمه الله تعبّر عن سعة أفقه، ومراعاته مذاهب الناس في عباداتهم في المساجد التي تمثل ملتقى الناس والسكان؛ فحفظ اجتماع كلمتهم في مساجدهم حامل على اجتماع كلمتهم فيما سوى ذلك، فلذلك نرى تشديد الشيخ في هذه المسألة لدرجة عزل الإمام من وظيفته إن أدى إلى زعزعة روّاد المسجد(3). بل نجد تدريباً على الاختلاف في المذهب الواحد؛ ففي متن العشماوية - الذي كان يدرس في إمارتي أبوظبي ودبي للأطفال - يذكر العلامة العشماوي أربعة أقوال في مسألة واحدة، بهدف التدريب على عدم التعصب والتشدد لرأي واحد. وللمالكية في هذا الباب سبقٌ فقد قرروا أن شرع من قبلنا من الأمم شرعٌ لنا إن لم يرد ناسخ له، كما اعتبروا مراعاة الخلاف، وفي ذلك توسيع لمدارك المتعلم والمتفقه. وقد نزل بالبلاد عدد من أتباع المذهب الجعفري من الشيعة، وكان انتقال بعضهم نتيجة لما تعرضوا له من اضطهاد في إيران مطلع القرن العشرين، وبنوا بها مسجدهم بدبي. وكانوا قبل فترة الشيخ سعيد بن مكتوم يصلون في مساجد السنة ويرجعون في أحكامهم

إلى قضاة المالكية والشافعية.

ويذكر مشايخنا أن النقاشات كانت تدور بين علماء السنة والشيعة أحياناً في إطار البحث العلمي، كما يذكر الشيخ أحمد بن الشيخ محمد نور بن سيف المهيري أن أحد كبار علماء الأباضية نزل بدبي والتقى بعالمها الشيخ محمد نور المهيري وأنهما تناقشا في الكثير من المسائل الدينية في جو أخوي.ونجد كذلك بعض العقود التي أبرمت في دبي على سبيل المثال وشهد عليها عدد من فقهاء المالكية والشافعية والشيعة. ومما يذكر هنا أن أهل البلاد وعلماءها لم يقبلوا بعض الأفكار الدينية المتشددة التي وردت إلى المنطقة بل تأثر أصحاب هذه الأفكار بتسامح وخلق أهل البلاد مما خفف من غلواء تشددهم. كما نزل ببلادنا عدد من طائفة البهرة، تمتعوا بكامل حريتهم في ممارسة شعائرهم بما لا يضر بالآخرين، وكان لذلك أثر عظيم في النمو الاقتصادي للبلاد في مطلع القرن العشرين قبل انهيار تجارة اللؤلؤ.

ثقافة الحوار

يقول الشيخ ابن بيّه: «الحوار واجب ديني وضرورة إنسانية، وليس أمراً موسمياً؛ ولذا أمر به الباري عز وجل فقال «وجادلهم بالتي هي أحسن» وبالحوار يتحقَّق التعارف والتعريف، وهو مفتاح لحل مشاكل العالم». وفيما يخص الحوار ذكر بلجريف 1826 - 1888م خلال زيارته لدبي في حدود 1863م أن أحد المسافرين اسمه زايد: وكان موهوباً بذاكرة قوية - وهو أمر مألوف في الأماكن التي يندر فيها وجود الكتب - فكان يتلو عن ظهر قلب مئات القصائد الشعرية المنسوبة إلى امرئ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين، إلى جانب ذلك يحفظ زايد الكثير من القصص التي يرويها عن الأرض وعن حكامها. ثم قال: وكان الفتى يشجع على النقاش معه إلى حد بعيد وهو مستعد للإجابة بأدب عن أي أسئلة متحفظة، ويقول بلجريف: وكان معنا على ظهر المركب شخص ودود جداً من رأس الخيمة وكان هذا الرجل لا يضيع اغتنام أي مناسبة سانحة للنقاش في الأمور اللاهوتية. وقال زويمر 1891 – 1905م وهو من الأطباء المبشرين: لم يكن بيعنا للكتب المقدسة واسعاً ولكنهم كانوا يطلبون كتباً أخرى. أحد الفقراء المثقفين بادلنا بكتاب الحريري (شكسبير العرب) مقابل عدد من الكتب، كما يذكر أنه ناقش أحد العلماء في أبوظبي في بعض المسائل. وقال عند وصوله إلى دبي «أخذنا ربان السفينة إلى منزله لتناول الفطور فور وصولنا، وعرض لنا أبياتاً من الشعر كانت زوجته قد كتبتها، وقد حدثتنا عن كتاباتها وعن القرآن، فتركنا لها نسخة من الإنجيل». كما يذكر هاريسون أنه قام في عام 1918م بتأدية قداس يوم الأحد في الهواء الطلق وشاهده وحضره جمع غفير من الأهالي، ولا يخفى أن ذلك كان في عهد الشيخ حمدان بن زايد الأول الذي كانت أبوظبي في عهده موئلاً لأهل العلم.

ويقول إنه التقى برجل قال له أنه يود أن يدرس الكتاب المقدس، ولعل ذلك الرجل هو الشيخ ثاني بن أحمد المهيري قاضي العين، إذ تروى عنه قصة مشابهة (4) ■

الهوامش:

(1) جميع ما أنقله من عبارات الشيخ، من كلمته «الأسس المنهجية للتسامح في الإسلام» انظر موقع الشيخ الرسمي.

(2) الخزرجي، الشيخ محمد بن أحمد، الفتاوى الخزرجية، (1 /39).

(3) وانظر مثالا آخر على حرص الشيخ محمد الخزرجي في رسالته لسماحة الشيخ أحمد الخليلي.

(4) انظر: رحالة وسياسون – زاروا الإمارات والخليج قبل النفط، د.محمد فارس الفارس، وإمارات الساحل المتصالح في انطباعات طبيب أمريكي عام 1918م لموزة عويص الدرعي.